القرامطة والمتصوفة

نموذجاً لأزمة الإسلام السياسي المتجددة

للدكتور محي الدين اللاذقاني[١]

بسم الله الرحمن الرحيم

حين نتحدث عن الإسلام السياسي يفترض أن نكون مستعدين نفسياً إزاحة قناع القداسة الذي نلحقه بالعقيدة. لأننا لا نتحدث في هذا المجال عن العقائد بكل زخمها النوراني وروحانيتها بقدر ما نتحدث عنها بعد أن خسرت أجمل ما فيها. وتحولت إلى أداة سياسية يتم تسخيرها بالكامل في خدمة بعض أصحاب الطموح السلطوي والمادي، الذين ينظرون إلى الدين من زاوية مصالحهم وطموحاتهم، التي ينقصها الإخلاص للعقيدة وتفتقر في معظم الأحيان إلى نبل المقصد.

مع ظاهرة الإسلام السياسي نحن أمام مسألة أرضية بحتة، وفي مواجهة مسرحية شديدة الواقعية تتكرر على مسارح العالم الإسلامي في كل زمان ومكان، بوجوه معروفة ومألوفة وبأدوار يمكن ترديد ما سيقوله أبطالها سلفاً، لكثرة ما تكرر ظهورهم على المسرح نفسه للمشاركة بالمسرحية نفسها، في ذلك العرض المستمر الذي تزداد عوامل الإثارة فيه خلال سنوات الأزمات الاقتصادية الطاحنة يقال كلام خطير ويتم تبرير شعارات كثيرة وتتسارع الأحداث إلى الذروة كما يحدث في المسرحيات ذات الحبكة المتقنة، ثم يتوقف. . . .

لأن الحركتين تمثلان حسب اعتقادي مثالين لنجاح الحاكم السياسي في شق صفوف الأمة وتقسيمها باسم العقيدة إلى جناحين أولهما يلجأ إلى التطرف وأعمال العنف، وثانيهما يستكين ويوجد طاقاته إلى مسارب غيبية ويصرف عمره في ملاحقة التهويمات والأوهام، دون أن أردد ما أشبه اليوم بالبارحة تستطيعون أن تلاحظوا خارطة توزع التيارات الإسلامية في العصر الحديث، وستجدون بعد بعض التدقيق أن معظم تلك التيارات تندرج تحت تصنيفين وتتوزع بين فئة تكفّر وتهجر لتنمي بعض بذور المقاومة وأخرى تستسلم كلياً لليأس وتقضي العمر في موالد وأفكار لا تنتهي تاركة تصفية الحساب بين الظالم والمظلوم إلى يوم الحساب. إضافة إلى تلك

---

(١) حصل اللاذقاني على درجة الليسانس من جامعة حلب، وعلى الماجستير (أدب الحركة القرمطية) وعلى الدكتوراه (الصورة الفنية في الشعر الحديث) من جامعة الاسكندرية. ومن مطبوعاته: (في الإعلام التربوي)، كما نشر مسرحية بعنوان (الحمام لا يحب القودكا).

أما في الشعر، فنشر لحد الآن خمسة دواوين هي: عزف منفرد على السيف، انتحار أيوب، أغنية خارج السرب، ومن كان حزيناً فليتبعني.

وفي مجال الدراسات الأكاديمية صدر له كتاب بعنوان: ثلاثية الحلم القرمطي، وكتاب: الصورة والخيال في الشعر الحديث.

القناعة المبنية على الملاحظة عن قضية توزع التيارات وتشابهها بين الماضي والحاضر يمثل القرامطة في تكوينهم العقائدي تلكم البراجماتيكية السياسية التي يمارسها الجميع ولا يريد أن يعترف بها أحد، حتى لا تقل قدرته على استخدام الدين كأداة سياسية أثبتت نجاحها وقدرتها على تحقيق أهداف الطامحين والطامعين في أكثر من زمان ومكان. بدأ القرامطة دعوتهم حسب ما يرى النوبختي في فرق الشيعة بالمقالة المباركية، ثم خالفوهم وقالوا بإمامة محمد بن اسماعيل على الطريقة الكيسانية، فزعموا أنه حي لم يمت وأكدوا هجرته إلى بلاد الروم، والواضح أن ذلك الاختيار العقائدي لم يكن عبثاً لأن الجماعة قررت منذ البداية أن محمد بن اسماعيل يستطيع العيش في بلاد الروم إلى الأبد ويترك لهم تنظيم شؤون الحكم والحياة على هواهم. وقد كان اختيار القرامطة لإمامهم الأول أحمد بن محمد بن الحنفية يتفق مع هذه التوجهات البراجماتيكية السياسية لأنهم لم يعلنوا ولاءهم له إلا بعد أن غاب في جبل رضوى وتفرغ لشرب الماء والعسل ومعاشرة الغزلان، وبذلك كانوا يضمنون دائماً عدم عودة الإمام الذين يدعون له حتى لا يخرب لهم بظهوره المفاجيء المعادلة السياسية الدقيقة التي حكموا بموجبها البحرين وجزءاً من سوريا والعراق وأجزاء واسعة من اليمن. في المرحلة التالية وبعد أن فقدت الدعوة لإمام غائب بريقها وصارت خطراً على أصحابها بظهور بعض الأئمة الغائبين في القيروان ومصر، ألغى القرامطة التزامهم نهائياً بتوجهات الشيعة الغالية، واعترفوا بإمامة الخليفة العباسي المطيع فتخلصوا بهذه النقلة المفاجئة من كل الالتزامات التي قطعوها لجماهيرهم التي ملّت من انتظار أحد الغائبين وبدأت تشكك بعودة المنقطع بجبل رضوى أو المسافر إلى بلاد الروم. إن اعتراف القرامطة بإمامة العباسيين في مراحلهم المتأخرة، تشبه إلى حد كبير اعتراف معز الدولة البويهي بخليفة بني العباس، فقد قيل أنه أراد أن ينقل الخلافة إلى الشيعة حين استولى على بغداد، لكن أحد أصحابه ومستشاريه الأذكياء نصحه بإلغاء الفكرة وقال: إنك اليوم مع خليفة عباسي تعتقد أنت وأهلك أنه ليس من أهل الخلافة، ولو أمرت بقتله لقتلوه مستحلّين دمه. ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأهلك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لفعلوا. وقد استمع معز الدولة لتلك النصيحة الثمينة، فسلب الخليفة الأمر والنهي وأبقى له ختم الرسائل ومهمة استقبال الوفود المضجرة وغير ذلك من توافه الأمور التي حولت الخليفة إلى ضابط علاقات عامة عند البويهيين. إلى جانب هذه المرونة العقائدية عند فئة لم تخفِ طموحاتها السياسية كما فعلت الفرق الأخرى، تبنى القرمطة حين وصلوا إلى الحكم سياسة التسامح الديني التي تقربهم كثيراً من المتصوفة، فقد زارهم الرحالة ناصر خسرو في الأحساء في منتصف القرن الخامس، ولاحظ أن عملية العبادات متروكة للفرد واختياره الشخصي فالحاكم لا يصلي لكنه لا يمنع الناس من الصلاة، والغريب أن ناصر خسرو لم يربط التدين بعقائد القرامطة بقدر ما ربطه بطبائع البدو الذين لا دين لهم كما يقول، وهو رأي شديد القرب من رأي الإمام الغزالي القائل: العامي الجاهل يظن أن التلبيس بالأديان والعقائد مثل المواصلات والمعاهدات الاختيارية،

فيصلها بحكم المصلحة مرة ويقطعها مرة أخرى، ولعل سياسة التسامح الديني التي أشار إليها ناصر خسرو هي التي جرّت على القرامطة عند المؤرخين اللاحقين كل تهم الإلحاد والكفر والزندقة، ومعظمها تهم ملفقة ألفها أصحاب الأهواء السياسية المتعارضة مع التوجهات القرمطية التي مثلت في بداياتها ثورة حقيقية ضد مؤسسة الفقه الرسمية وليس ضد الدين، **القرامطة الذين أخرجهم المؤرخون الرسميون وفقهاء السلاطين من حظيرة الإسلام كانوا في الحقيقة فرقة إسلامية من تلك الفرق الكثيرة التي تختلف في قضايا التأويل والإمامة** وتتفق في ما عدا ذلك على كل الأصول، فقد اتفق القرامطة كما هو كعروف مع المعتزلة ومعتدلي الشيعة على العدل والتوحيد والوعد والوعيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واتفقوا مع الزيدية والخوارج على صفات الإمام المتمثلة في العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس ثم أهملوا كما أهمل الخوارج النسب القرشي وكان مصدر خلافاتهم الأساسية الكبرى مع غلاة فرق الشيعة التي يصنفون في إطارها رفضهم للقول في كل مراحل تقلباتهم العقائدية والسياسية بعصمة الإمام، فكانوا أقرب إلى العقل والفطرة السليمة من الذين قالوا بالعصمة الكلية أو الجزئية، وأكثر فهماً لدور الإمام من الذين غالوا في صفات الأئمة فأعطوهم علم الغيب ومعرفة أسرار الخليقة وغير ذلك من الصفات التي يصعب تصديقها عن بني البشر. ويجب أن نلاحظ هنا أيضاً أن فكرة الإمام المعصوم الذي اختصه الله بعلم التأويل كانت من أسباب خلاف الشيعة المعتدلة مع المعتزلة، لأن العقل المعتزلي وجد من الصعب عليه أيضاً أن يحول العلم كله إلى رجل واحد، وهكذا حصلت القطيعة، لكنها لم تكن كلية فضلّت فرق الشيعة بغلاتها ومعتدليها أقرب إلى المعتزلة من أهل السنة الذين كرّسوا عداوتهم للطرفين وحاولوا ثقافياً وسياسياً أن يبطلوا أقوال تلك الفرق بالحوار حين تجدي الكلمة، وبالحوار المسلح حين تتعرض المصالح الاقتصادية والسياسية للخطر، في ظل تصادم المصالح طبقت السلطة بحق القرامطة القوانين التي تعرف في عالم اليوم بقوانين العزل السياسي، فقد أفتى الإمام الغزالي في كتاب فضائح الباطنية الذي ألفه لإثبات إمامة المستنصر بعدم قبول توبة القرامطة وتطرف كثيراً في عزلهم، فذهب إلى القول بعدم شرعية الزواج منهم، وعدم ائتمانهم على وظائف الدولة فضاقت أمامهم الخيارات وصار الخروج ومواصلة التمرد هو الطريق الوحيد المفتوح أمامهم لمواصلة الحياة. لقد كان من الصعب على مؤسسة الفقه الرسمية أن تصدر فتاويها بتكفير فرقة إسلامية كاملة، خصوصاً إذا كانت هذه الفرقة من الفرق التي حصلت على الدعم المعنوي لأحد الأئمة الأربعة الكبار، فقد أفتى الإمام أبو حنيفة بالقتال إلى جانب القرامطة والمبيضة كما نص على ذلك الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، وكانت تلك الفتوى تنسجم مع مواقف أبي حنيفة المعروفة ومع فتواه الأخرى التي دفعته إلى القول بوجوب نصرة الإمام الثائر زيد بن علي ولعل هذه المواقف هي التي جعلت الفاطميين لاحقاً يعتمدون المذهب الحنفي كمذهب رسمي لدولتهم تقديراً منهم لصلابة أبي حنيفة وفهمه الثوري لطبيعة الإسلام، وإذا شئنا أن نتساءل عن سر ذلك الاستقلال على تكفير القرامطة فإننا لن

نعثر على الجواب في معتقداتهم، بل سنعثر عليه في مواقفهم السياسية، فالخلافة العباسية لم تحاربهم في البداية لسوء المعتقد أو المذهب بل لمناداتهم بعدم شرعية الخليفة ولإمعانهم بالطعن بسلاطين الزمان ولو كان الخلاف دينياً مذهبياً لما كان بالإمكان عقد تحالف متين بين الطرفين فور ظهور الخطر العبدي القادم من مصر كما لاحظ ابن خلدون.

على الصعيد السياسي الذي يفسر ضراوة العداوة الرسمية للقرامطة ومحاولات تكفيرهم وإخراجهم عن الملة باستخدام سلاح الدين الذي كان له عدة مستويات للفهم في ذهن الخليفة كما في ذهن القرامطة، تتكشف الأمور بشكل أوضح ويظهر السبب الحقيقي للخلاف من خلال تناحر المصالح فقد أهدر القرامطة هيبة السلطة الزمنية بوزرائها وفقهائها وخليفتها، وسلطوا الأضواء على حقائق الظلم الاجتماعي التي تحاول الدولة إخفاءها، ففيما كان ابن الفرات وزير المقتدر وهو أشرس من حارب القرامطة ينفق سنوياً من أموال الدولة ثلاثين ألف دينار لتغيير ستائر قصره، كان الناس يموتون من الجوع في شوارع بغداد في زمن يكفي الرجل وزوجته وأولاده للعيش الكريم سنوياً ما مقداره ثلاث مائة درهم، هذا الوزير وغيره ممن يقف ببابه المداحون لم يكن من وجهة نظر القرامطة أكثر من مرتشٍ خسيس:

وزير قد تكامل بالرقاعة ... يولّي ثم يعزل بعد ساعة
إذا أهل الرشا اجتمعوا إليه ... فخير القوم أوفرهم بضاعة

والفقيه الرسمي الذي يصول ويجول ويكفّر هذا وذاك ويفتي بالجلد والقطع وجد ما يستحقه لثامه بالدفاع عن دولة الظلم، فهو ليس أكثر من جاهل متحذلق يخدع الناس باللحية الطويلة والمسبحة:

لا تخدعنك اللحى والصور ... تسعة أعشار من ترى بقر
تراعم كالسحاب منتشراً ... وليس فيهم لطالب مطر
في شجر السرو منهم مثل ... له رواء وما له ثمر

الغريب الذي يلفت النظر أن هذه الأبيات على أصحاب اللحى غير المقيدة، لم تشع في تراثنا شيوع قول يزيد بن مفرغ في عبّاد بن زياد:

ألا ليت اللحى كانت حشيشاً ... فنعلفها خيول المسلمينا

مما يدل على أن الدولة الإسلامية بعهديها الأموي العباسي كانت تتسامح أحياناً مع ظواهر التمرد الفردي، لكنها لا توفر أية وسيلة قمع ممكنة لكبح التمرد المنظم وإخفاء آثاره.